صالون الأميرة نازلى فاضل[1]

من المهم لكل من يؤرخ للحياة الفكرية فى مصر الحديثة ويتطرق لينابيع حركة التنوير، وما نتج عنها من تأثير ألاَّ يتجاهل الصالونات الأدبية، أو تلك الأندية الأرستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى والفكر فى مصر، من كُتَّاب، وخطباء، وشعراء، ومفكرين، وسياسيين، وصحفيين، وغيرهم، وتدفعهم إلى التسابق فى مضمار الرقى الفكرى والتمدن، والتى كان من أبرزها صالون الأميرة نازلى فاضل، وصالون إسماعيل صبرى، والمجالس التى كانت تعقد فى منازل على باشا مبارك، ولطيف باشا سليم، وسعد زغلول، وغيرهم، وما أعقب ذلك من ظهور صالونات مشهورة مثل صالون «مىّ» الذى ظل موضوعًا محبباً ومثيراً لدى العديد من المثقفين والقراء، وصالون «العقاد» الذى احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل، ودارت فيه موضوعات شتى من التاريخ، والأدب، والفلسفة، والفن، والسياسة، والفكاهة.

(١) ابنة الأمير مصطفى فاضل، نجل إبراهيم باشا، ابن محمد على، وشقيق الخديو اسماعيل، والذى كان يعتبر نفسه أحق منه بعرش مصر، لذلك ظل مناوئاً له حتى اضطره الخديو فى نهاية الأمر إلى التنازل عن جميع ماله بالقطر المصرى من الأملاك وغيرها. للتفاصيل يمكن الرجوع إلى دار الوثائق: محافظ أبحاث: محفظة ١٣٥ تحت عنوان «تراجم محمد على والعائلة» وإلى جانب ذلك كان من دعاة الحرية والدستور والثائرين فى وجه الاستبداد فى عاصمة الدولة العثمانية، فطالب بالدستور فى عهد السلطان عبد المجيد، لدرجة أن أطلق عليه البعض «أبو الأحرار». ونتيجة ليأسه من العمل السياسى وفشل مؤامراته ضد الخديو إسماعيل انصرف إلى العلم والأدب، فحوّل قصره إلى مدرسة، كما كانت مكتبته الخاصة من أكبر المكتبات فى مصر، مما جعل له منزلة خاصة فى قلوب المثقفين المصريين. وتميزت الأميرة نازلى منذ نشأتها بالذكاء والدهاء والجمال الفنَّان، وقد اتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية نتيجة لتزوجها من سفير الدولة العثمانية فى لندن، وبعد وفاة زوجها عادت إلى عاصمة الخلافة، حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعاً لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة، فاضطرت للإقامة فى مصر فترة، حيث ضاق الخديو عباس الثانى بها ذرعًا أيضاً، ثم رحلت إلى تونس، وتزوجت من السيد خليل بو حاجب نجل قاضى المحكمة الشرعية بتونس، ولما لم يطلب لها المقام هناك استقرت فى قصرها بالقاهرة =

ومع أن صالون الأميرة نازلى كان يعد من أبرز الصالونات فى مصر وأشدها تأثيراً فى الحركتين الأدبية والسياسية[1] خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر، أمثال «شريف باشا»، و «رياض باشا»، و «سلطان باشا»، و «الطيف باشا سليم»، و «عمر باشا لطفى»، و«شاهين باشا»، وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عُرفت باسم جمعية حلوان السرية، ثم الحزب الوطنى بعد ذلك[2].

وعلى الرغم من ذلك، ومع أن هذا الصالون قد أدّى دورًا مهماً فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده، تلك الجماعة التى تبدأ جذورها منذ حضور الأفغانى إلى مصر خلال سبعينات القرن الماضى، وازدهرت بفكر ونشاط محمد عبده، الذى قاد حركة التفاهم بين السلفية والتحديث... ومع أن هذا الصالون قد ضم بين جنباته قاسم أمين، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوى، وأحمد فتحى زغلول، وإبراهيم المويلحى، وأديب إسحاق، وعلى يوسف، وحسين رشدى، وغيرهم من قادة الرأى والفكر والسياسة الذين كانت لهم أدوار بارزة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر... ومع أن هذا الصالون كان يضم بين جنباته كبار المسئولين الإنجليز أمثال: إيفلين بارنج (لورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر، وهارى بويل السكرتير الشرقى، وكبار رجالات الاحتلال فى مصر، أمثال المستشرق رودنالد ستورز وغيره.

... ومع كل ذلك فإن هذا الصالون وصاحبته كانا من مظاليم التاريخ، فلم يحظيا باهتمام من أحد، ولم يُبرز أهمية دراستهما أحدٌ، خاصة أن هذه الأميرة كانت تُنسب إلى الأسرة المالكة المعزولة، كما أنها كتبت بعض المقالات فى الصحف الأجنبية ضد المصريين[3].

= إلى أن ماتت فى نهاية عام ١٩١٣.
انظر: أوراق محمد فريد، المجلد الأول، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩ القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ص ١٣٣، ومصطفى عبد الرازق: أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده، مجلة الشباب، العدد الأول، فى ١٧ فبراير ١٩٣٦.

(١) عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر حـ٣، وإبراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق، القاهرة، دار الفكر العربى ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٠ ص ٣٠ ـ ٨١.

(٣) للأميرة حديث نشره جرفيل Guerville الأمريكى فى كتابه الذى نُشر فى لندن عام ١٩٠٥، تحت عنوان New Egypt، وصفت فيه الشباب المصرى بالخمول والكسل، كما أن لها حديثاً نُشر فى الإيجبسيان جازيت عام ١٩٠٩، ذكرت فيه أن الشباب المصرى لا يساوى ثمن الحبل الذى يُشنق به، مما أهاج بعض الجرائد المصرية ضدها. انظر: المقطم فى ٢٦ فبراير ١٩٠٩.

وكانت على علاقة بالإنجليز لقد تربت الأميرة نازلى على النمط الأوربى، وتثقفت بالثقافة الغربية، وكانت تتكلم الفرنسية كإحدى بنات السين ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع، هذا إلى جانب أنها كانت تُحسن اللغات الإنجليزية، والتركية، والعربية. وكانت كما يذكر محمد فريد تقابل الرجال على العادات الأوربية، وتحيى ليالى موسيقية فى دارها، و«تكثر من شرب الخمر ـ خاصة الشمبانيا ـ على الطعام، بل وقبل كل طعام»[١]. يضاف إلى ذلك أنها كانت «تتداخل فى القضايا مقابل سمسرة تأخذها باسمها، أو باسم القضاء»[٢].

لقد كان قصر الأميرة نازلى مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى، وصفوة أهل العلم والأدب، من أجانب ومصريين، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولم يقتصر صالونها على تدارس الشعر والأدب، بل كانت تُحَلُّ فيه عظائم الأمور، وتعقدً.

ففى صالونها كانت تمحص مسائل الإصلاح الاجتماعى، وأحوال المرأة المصرية، وتتدارس طرائف العلوم والآداب، والفنون الجميلة، وخلاصة الفكر الراقى.

وفى صالونها كانت تشجع أصحاب المواهب والكفاءات المتميزة التى حملت راية التنوير الفكرى فى مصر، كما كانت تناقش الكتب الأوربية التى كانت تهاجم مصر[٣]، وتخاطب الصحافيين، وترسل بآرائها إلى الجرائد.

وفى صالونها دافعت عن أحمد عرابى وثورته، ولم تمل الكلام عن نزاهة أغراضه، ومما قالته عنه: إنه لم يكن جنديًا فحسب، لأن قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك ولو كان رجلاً عنيفاً لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رءوسهم، وصار أميرًا على البلاد[٤].

وفى صالونها تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى، حيث قربت منها العديد من رجالات مصر السياسيين وغيرهم، امثال جمال الدين

(١) انظر: أوراق محمد فريد، المجلد الأول، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٨ ص ١٣٣.

(٢) يذكر محمد فريد أنها تداخلت فى قضية السيدة «ليلة هانم» مقابل مبلغ كبير أخذت به كمبيالات عليها، وأنها أرادت توكيله فى هذه القضية، ولكنه رفض، لأن سببها غير شرعى للتفاصيل؛ انظر: أوراق محمد فريد ص ١٣٤.

(٣) من أمثلة ذلك كتاب «سر تأخر المصريين» لدار كور الفرنسى.

(٤) بلنت: التاريخ السرى للاختلال البريطانى لمصر، ص ٥١٦.

الأفغانى، ومحمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد فريد، وأحمد فتحى زغلول، وإبراهيم الهلباوى، وإبراهيم المويلحى، وحسين رشدى، وغيرهم.

وقد يرجع السبب فى ذلك أنها كانت تنتمى إلى فرع من الأسرة الحاكمة، كان يدعى أحقيته بولاية العرش، لذلك فإنها كثيراً ماناوأت الخديو إسماعيل، ووقفت بجانب مناوئيه، أمثال جمال الدين الأفغانى أثناء وجوده بمصر، وخلال تواجده بالآستانة، كما كانت تتجسس للسلطان العثمانى على الخديو عباس الثانى، وعليه كذلك للإنجليز[١]. يُضاف إلى ذلك أنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة، مما أدى إلى سخط السلطنة عليها[٢].

وقد توثقت علاقة الأمير نازلى بالأفغانى لدرجة أن قال عنها: إنها «تمثال الكمال والجمال، حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى، والمقام الأسنى»[٣].

كما حاول أن يطلب لها من السلطان «وسام الشفقة المرصع[٤] ولكنه لم يفلح فى ذلك.

كما توثقت علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه ببلاد الشام إلى القاهرة فى عام ١٨٨٨، خاصة بعد أن علم بمساعيها لدى الخديو توفيق، واللورد كرومر، ورياض باشا رئيس النظار وقتئذ فى إصدار العفو عنه، فتردد على صالونها، وتوثقت علاقته بها[٥] مما كان له أثره العميق فى حياة الشيخ نفسه ويشهد على ذلك خطاب لها بالفرنسية أرسلته إلى الشيخ، ليس عن طريق البريد، ولكن عن طريق رسول تقول فيه[٦]:

Cher Ami..

Je Vous Prie de Venir me Voir Ce Soir Aprés 7h.

Je regrette d' aVoir manqué Votre Visite hier

(١) أوراق محمد فريد ص ١٣٤، ومذكرات سعد زغلول جـ١ ص ٦٤.

(٢) الرائد المصرى: العدد ٢٨ فى ١٨ ديسمبر ١٨٩٦ ص ٢٩٣ تحت عنوان: «البرنسيس نازلى هانم».

(٣) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جـ١، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ، ص ٨٩٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه جـ١، ص ٤١٨، ٨٩٤.

(٦) نشر هذا الخطاب الأستاذ عثمان أمين خلال تعليقه على مقال الشيخ مصطفى عبد الرازق «أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده»، موضحاً أن الخطاب كتب على غلاف بالعربية «عزتلو شيخ محمد عبده حضر تلرى». الرسالة، العدد ١٩٠، فى ٢٢ فبراير ١٩٣٧.

Votre amie Sincére

(NaZli)

وترجمته:

صديقى العزيز..

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة. أنا آسفة إذا فاتتنى رؤيتك أمس.

صديقتك المخلصة

«نازلى»

ومعنى ذلك أن أمر الصداقة بين الشيخ والأميرة أصبح واضحًا، وأن الأمير خصت الشيخ بمكانه مميزة، وأنها كانت تجلّه.

ومع أن الشيخ محمد عبده لم يكن راضياً عن اشتغال الأميرة بالسياسة، وأنه كان يفضل لها أن توجه عنايتها بتأسيس أعمال تفيد فى تهذيب البنات وتعليمهن، فإنه لم يستطع إقناعها بذلك، ومع أنه كان لايجاريها فى آرائها السياسية، ويفضل الصمت على مجاراتها فى أحاديثها، فإنها كانت تغضب منه وتطالبه بالاشتراك فى الحديث، ولما يتحدث تتعارض آراؤه مع آرائها، لدرجة أنه قال لها يومًا: «إنْ سكتُ لا أُرضيك، وأن تكلمت لا أرضيك، فكيف العمل؟»[١].

وعلى أى حال فقد استطاعت الأميرة أن تؤثر فى أفكار الشيخ محمد عبده فى وجوه ثلاثة، أوْضَحهَا الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى:

١ ـ على الرغم من عداوة الشيخ محمد عبده للإنجليز وكتاباته الملتهبة ضدهم[٢] خاصة فى جريدة العروة الوثقى التى أصدرها بالاشتراك مع أستاذه الأفغانى فى باريس، فقد استطاعت الأميرة عن طريق علاقتها الوطيدة به أن تخفف من عداوته لإنجلترا، وأن تقربه من صديقها كرومر، لدرجة أن تلاشت من صدره عداوة إنجلترا، وأصبح يجهر فى كتاباته بدورها فى تنظيم أمور مصر، كما أعلن عن مهادنته للإنجليز[٣]، موضحًا أن

(١) محمد رشيد رضا: المرجع السابق جـ١، ص ٨٩٥.

(٢) Blunt: Secret History of the English Occupation in Egypt P. 489.

(٣) Safran, N: Eghpt in Search of Political Community, OXFORD University Press, 1961, P. 62.

إصلاح الأمة لايتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة، وتكوين أفرادها علمياً وفكريًا، وأنه لايمانع فى الاستعانة بالإنجليز على نوال بعض الإصلاح، ولو أدى ذلك إلى معاداة الخديو(١).

يُضاف إلى ذلك أنه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث، وأباح للعقل المصرى أن يفكر غير متحرج ولا متحفظ فى أمور الدين والسياسة والاجتماع، وعرض كل شىء للنقد، واستخلاص وجه الحق فيه، برغم أى قيود أو ظروف(٢).

٢ ـ إلمامه فى كتاباته بموضوعات لم يتعرض لها قبل تعرفه على الأميرة، ففى مقاله «الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها» قام بتقريظ فوائد حفظ هذه الآثار، وأجاز للرسامين عملها، بقوله: «إن الرسم ضرب من الشعر الذى يُرَى ولايسمع، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يُرى»(٣). وقوله: «وأما إذا نظرت إلى الرسم ـ وهو ذلك الشعر الساكت ـ فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسًّك»(٤). وقوله: «فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها»(٥).

وهذا الكلام ما كان يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه.

٣ ـ إن أسلوبه الكتابى فى أواخر أيامه كان يميل إلى الدعابة والخفة، كما فى الفصول التى كتبها عن سياحاته(٦).

ومع أننا نضيف إلى ماذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق أن عناية الشيخ بإتقان الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة، فإننا نرى أن المبالغة فى تأثير الأميرة على الشيخ محمد عبده إلى هذا الحد قد يبعدنا عن الموضوعية بعض الشىء.

---

(١) أوراق محمد فريد ص ١١٩.

(٢) الدستور، العدد ١٣٣١ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٤٩، تحت عنوان «الدكتور طه حسين يلخص لأهل الباكستان حياتنا العقلية فى مصر».

(٣) رشيد رضا: المرجع السابق جـ٢، ص ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٩٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مصطفى عبد الرازق: أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده.

حقيقة أن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم، ووقف للإنجليز بالمرصاد، وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجومًا عنيفًا، وأنه بعد أن قابله الأمير تغير موقفه تجاههم، ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخة، وأن التجارب صقلته وحنكت أفكاره. حقيقة أن بعض عظماء الرجال برزت عبقريتهم فى منبت العطف والتأثير النسائى، وأن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسبه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه، وطالب الحاكم بإصدار دستور عادل لحكم بلاده.

وعلى أى حال فإن تأثير الأميرة على رجالات مصر لم يتوقف عند الشيخ محمد عبده، بل تعداه إلى آخرين، فقد أدت دورًا مهمًا فى حياة سعد زغلول، وقاسم أمين، كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره.

أمَّا عن سعد زغلول فقد توثقت علاقته بالأميرة عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده، فاتخذت منه وكيلاً لها، وأتاحت له فرصة الاختلاط بأوساط الطبقة الأرستقراطية، وبالعديد من الشخصيات المهمة، وشجعته على تخطى الحاجز الاجتماعى، ونصحته بدراسة الحقوق وضرورة تعلم الفرنسية، وقربته إليها لدرجة أن ترددت الشائعات بقرب زواجه منها[١].

ومن خلال صالونها التقى سعد بإيفيلين بارنج (لورد كرومر)، وبفضل مساعيها لدى كرومر عين سعد مستشارًا فى الاستئناف[٢]، كما كانت جواز المرور فى اقترانه من صفية فهمى، كريمة مصطفى باشا فهمى، رئيس مجلس النظار، وأكثر المسئولين المصرين تأييدًا للإنجليز، وذلك فى السادس من فبراير ١٨٩٦[٣]. ثم رشحته بقوة وتصميم ليكون أول وزير مصرى للمعارف، مع أنه من أسرة فلاحية مصرية.

صحيح أن تزكية نازلى وحدها لم تكن لتكفى فى التأثير على المعتمد البريطانى كرومر لولا كفاءة سعد، ولكن من أين عرف سعد؟ إنه تعرف عليه فى صالونها[٤].

(١) عباس حافظ: بطل النهضة المصرية الكبرى سعد زغلول باشا، القاهرة، د. ت ص ٦٣.

(٢) أوراق محمد فريد: المجلد الأول، ص ١١٩.

(٣) يرفض عباس العقاد هذه الفكرة، ويذكر أن الأميرة لم تكن ترتاح إلى هذا الزواج، ولم تساعد على إتمامه. انظر: سعد زغلول سيرة وتحية، القاهرة، مطبعة حجازى، ١٩٣٦ ص ٥٢٨.

(٤) مذكرات سعد زغلول، جـ١، ص ٦٤.

وبالنسبة لقاسم أمين فقد استطاعت الأميرة «نازلى» تغيير مفهومه عن المرأة، فبعد أن عاد من فرنسا إلى مصر كتب كتاباً بالفرنسية عنوانه Les Egyptiens(المصريون) للرد على مطاعن الدوق الفرنسى داركور Duc de Darcount القاضى بالمحاكم المختلطة[١]، وفيه دافع عن الحجاب، وندد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة، وهاجم المرأة المصرية، وقلل من قدرها، ووصفها بالضعف والانغلاق، وطالبها بالقبوع فى المنزل والاقتصار على شئون الدار، وعدم الخوض فى الحياة العامة، خاصة أن مصر لا تزال تعيش فى حالة من التخلف. يضاف إلى ذلك أنه أخذ فى كتابه سلسلة من المقالات فى جريدة «المؤيد» كانت تحت عنوان «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ»[٢].

ولما كانت الأميرة «نازلى» تمثل النهضة النسائية المصرية فى ذلك الوقت، فقد رأى محمد عبده وسعد زغلول وآخرون أن ماكتبه قاسم أمين يعد تعريضًا جارحاً بالأميرة، ونتيجة لذلك كلفوا «فارس نمر» صاحب المقتطف بالرد عليه، فبدأ كتابه سلسلة من المقالات لنقد كتاباته عن المرأة لم تنل رضاهم، ولما طالبوه بالتوقف عن الكتابة طلب منهم الحصول على الإذن بذلك من الأميرة، وقد توسط سعد زغلول لدى الأميرة فى هذا الشأن، ثم أحضر قاسم أمين للاعتذار لها، فقبلت اعتذاره وبعد ذلك أخذ يتردد على صالونها، فرآها سافرة تناقش محمد عبده، وعلى يوسف، والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة فى أمور مصر الداخلية، وفى الشئون العالمية[٣]. كما وجد فيها امرأةتدافع عن نساء مصر، وتجادل الكتّاب الأوربيين جهارًا بدون حرج، مما جعلها تزداد فى عينيه اقتناعًا، وارتفع مقامها لديه، مما جعله يغير رأيه، ويتحول من النقيض إلى النقيض، ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها[٤]. وبدأ يكتب فى المؤيد مدافعاً عن حقوق المرأة، وضرورة تحريرها من الجهل والتخلف، وأن تخرج من قوقعتها، كما طالب

(١) وضع كتابًا عن مصر ونُشر فى باريس عام ١٨٩٣ تحت عنوان L' Egypte et les Egyptiens انتقد فيه المجتمع المصرى انتقادًا لاذعًا، وصور فيه حياة مصر والمصريين بألوان قاسية، مس فيها عاداتهم ودينهم.

(٢) نشرت فى الفترة بين عامى ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨، وتضمنت تسعه عشر مقالاً دارت حول ثلاثة عناصر، فالمقالات السبع الأول كانت حول المال، والمقالات السبع الثانية، كانت حول أسس التربية السليمة، أما المقالات الخمس الأخيرة والتى أسماها أخلاق ومواعظ فقد دارت حول موظفى الدولة. وقد طغت فكرة التربية على كل هذه المقالات.

(٣) السياسة الأسبوعية، فى ٥/ ٥/ ١٩٢٨، مقال للأستاذ عبد العزيز البشرى.

(٤) د. ماهر فهمى حسن: قاسم أمين، القاهرة، ١٩٦٤ ص ١١٧.

بسفورها وخروجها إلى العمل إذا اضطرتها الظروف[١]، بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب[٢]، وقد جمعت هذه المقالات بتأييد ومباركة نازلى فاضل، والشيخ محمد عبده فى الكتاب المسمى «تحرير المرأة»، الذى صدر فى عام ١٨٩٩ وتسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق، وإثارة العديد من المعارك الفكرية الضارية.

وقد أكد دور «نازلى فاضل» فى إصدار هذا الكتاب ماذكره داود بركات فى مقال له بالأهرام من أن «قاسم أمين» هدف من تأليف كتاب تحرير المرأة إلى إرضاء نازلى فاضل، وتصحيح خَطَئِه فى حقها[٣]. كما أكد دور محمد عبده مارددته «الجريدة» بأن محمد عبده كان صاحب هذه الفكرة[٤]. وما ذكره صاحب الأعمال الكاملة لقاسم أمين حول ما تردد من أن الشيخ محمد عبده شارك فى تأليف هذا الكتاب، ثم وضع على غلافه اسم قاسم زمين تجنبًا للحرج، والعاطفة الضارية التى يمكن أن تهب عليه، وخاصة أنه الشيخ الأزهرى الكبير، الذى كان يحمل منصب مفتى الديار المصرية[٥].

وقد استند مَنْ رَدَّدَ هذه المقولة على أن الأمور الدينية التى عالجها الشيخ محمد عبده فيما يختص بحقوق المرأة قد تناولها قاسم أمين بالبحث فى الناحية الاجتماعية، كما أكدوا أن آراء قاسم أمين لقيت تأييدًا تامًا عند الشيخ محمد عبده، واستندوا فى ذلك إلى الاجتماع الذى حدث فى جنيف فى عام ١٨٩٧ بين الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، ولطفى السيد، وقاسم أمين، وأخذ الأخير يتلو على الإمام بعض فصول من كتابه عن تحرير المرأة، فكان يوافق على ما فيها، ويضيف إليها بعض الفقرات[٦].

وإلى جانب ذلك استندوا إلى ماذكره أحمد شفيق فى كتابه «أعمالى بعد مذكراتى» إلى رغبة قاسم أمين فى ألاّ يصدر الكتاب باسمه فقط، بل بالاشتراك مع آخرين، وأن «قاسم أمين» عرض عليه أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب، ولكنه امتنع عن تلبية

(١) نشرت أولى هذه المقالات فى ١٥ مايو ١٨٩٩، والثانية فى ٢٠ مايو، والثالثة فى ٢٨ مايو.
(٢) مجلة الحديث، يناير ١٩٣٩، ص ٨٨، ٩٢.
(٣) الأهرام، فى ٤ مايو ١٩٢٨.
(٤) الجريدة، فى ٢٦ أبريل ١٩٠٨.
(٥) قاسم أمين: الأعمال الكاملة ـ تحقيق محمد عمارة ـ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ١٣٣.
(٦) درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب ١٩٤٥ ص ٧٤ ـ ٧٥.

طلبه لسببين: **أولهما:** عمله الحكومي الذي لا يسمح له بالتفرغ لمسألة يعلم أن تأليف كتاب فيها لا ينتج الثمرة المرجوة.

وثانياً: يقينه بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة[١].

وعلى أية حال، فعلى الرغم من استبعادنا فكرة اشتراك الشيخ محمد عبده في تأليف هذا الكتاب خاصة أن أسلوبه الإنشائي أقرب إلى أسلوب قاسم أمين فيه إلى أسلوب محمد عبده، فإننا لا نستبعد أن يكون الشيخ قد أضاف إليه بعض الفقرات والاقتباسات المأخوذة من أمهات الكتب في الفقه الإسلامي، وخاصة أن ثقافة قاسم أمين الدينيه لم تكن قد بلغت الإحاطة بمثل هذه الأمور الفقهية.

وهكذا يتضح أن فكر قاسم أمين كان قد تطور وتغير على يد هذه الأميرة، ومن خلال صالونها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن كتاب تحرير المرأة كان انتصاراً لأفكارها، وإرضاءً لتطلعاتها، وترديداً لما كان يدور في حجرات صالونها.

وبالنسبة لعلاقة الأميرة نازلي بمحمد فريد فلم تكن طيبة في أول الأمر، حيث هاجمها على صفحات الجرائد لتمجيدها للإنجليز، ثم لآرائها المعادية للمصريين، حيث تم الصلح بينهما، وقابلها في تونس، حيث دعته في دارها بحمام الأنف، وبالمرسى، وأكرمته، وقد قال عنها فريد: «كنا على طرفي نقيض في السياسة، ولكنها كانت تحترم آرائي». ولكن هذه الصداقة لم تدم بينهما طويلاً، خاصة أنها كانت تكره مصطفى كامل وتتهمه بالمتاجرة في الوطنية، ونظراً لاختلافهما حول هذه النقطة توقفت عن الهجوم على مصطفى كامل فترة، ولكنها بعد أن علمت بمرضه دعت عليه بالموت أمام فريد، فغضب منها وقاطعها، ولم يقابلها بعدها قط، على الرغم من صلته المتينة بها[٢] ومشاركتها له في أفراح أسرته[٣]، ووقوفها بجانب التماس العفو عن إبراهيم الورداني قاتل بطرس غالي[٤].

لقد تعرض الكثيرون للأميرة نازلي بالتشكيك، بحجة أنها كانت إنجليزية الهوى

(١) انظر: «أعمالي بعد مذكراتي»، القاهرة، ١٩٤١ ص ٣٥٢.
(٢) أوراق محمد فريد: الجزء الأول، ص ١٣٤.
(٣) حضرت على سبيل المثال زواج ابنته فريدة، وابن أخته أحمد كمال.
(٤) مذكرات سعد زغلول جـ٣، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠، ص ١٤٥٧ ـ ١٤٥٨.

والتفكير، وأن كبار الإنجليز فى مصر كانوا من روّاد صالونها، ومن أصدقائها الخصوصيين[١].

ولأن كلمتها كانت ذات تأثير لدى قصر الدوبارة، ومع كل ذلك، وعلى الرغم من نقدها للمصريين، فهل يمكن أن نتجاهل أن الشيخ محمد عبده كان يحترم عقليتها، ويرى فى صالونها خيرًا، وأنها خدمتْ الوطنية المصرية - بقصد أو بغير قصد - من خلال معاضدتها لسعد زغلول[٢]، وأنها كانت من أوائل مَنْ شاركن فى حركة التنوير الفكرى وإيقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسرة الراقية، وأنها - بخيرها وشرها - اشتركت فى صُنع بعض زعماء مصر، أمثال سعد زغلول، وقاسم أمين. ففى صالونها تم صقل الزعامات المصرية وتطوير بعض مفاهيمها، فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين احوال المرأة وتلافى ما فى حياتها البيئية من النقائص إلا بعد مقابلته للأميرة، وتأثره بأفكارها، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا إلا بين الباشوات فى صالون الأميرة، وبعد مصاهرته للطبقة الأرستقراطية.. ولم تتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدعو إلى تحرير المرأة إلاّ بعد مقابلته للأميرة، التى تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة فى ثقافتها ووطنيتها.

وهكذا استطاعت هذه الأميرة التى كانت تفوق أكثر أهل عصرها من أبناء الشرق فى الاشتغال بالسياسة، والاهتمام بمسائل بنات جنسها، أن تسوس مواهب رجالات مصر، وأن تؤدى دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية، وأن تُهَيِّئ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر، حتى وافاها الأجل فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٣[٣].

* * *

(١) عبد الخالق لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤، القاهرة، دار المعارف ١٩٧١ ص ٣٥.

(٢) الهلال: عدد سبتمبر ١٨٨٢، مقال للدكتور السيد فهمى الشناوى تحت عنوان «صالون نازلى هانم» ص٤٦.

(٣) المقتطف جـ٤ يناير ١٩١٤ ص ٩٩.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً ـ الوثائق:

دار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة.

محافظ أبحاث: محفظة ١٣٥، تحت عنوان «تراجم محمد على والعائلة».

ثانياً ـ المذكرات:

١ ـ أوراق محمد فريد: مذكراتى بعد الهجرة، المجلد الأول ١٩٠٤ ـ ١٩١٩، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨.

٢ ـ مذكرات سعد زغلول جـ١ ـ تحقيق عبد العظيم رمضان، القاهرة، الهيئة العامة الكتاب ١٩٨٧، جـ٣، ١٩٩٠.

ثالثاً ـ المراجع العربية:

أحمد شفيق: أعمالى بعد مذكراتى، القاهرة، ١٩٤١.

درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٤٥.

عباس حافظ: بطل النهضة المصرية الكبرى سعد زغلول باشا، القاهرة، د. ت.

عباس العقاد: سعد زغلول سيرة وتحية، القاهرة، مطبعة حجازى، ١٩٣٦.

عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ٣، إبراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق، القاهرة، دار الفكر العربى.

عبد الخالق لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.

عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠.

قاسم أمين: الأعمال الكاملة ـ تحقيق محمد عمارة ـ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ماهر فهمى حسن: قاسم أمين، القاهرة، ١٩٦٤.

محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جـ١ القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ.

رابعاً ـ المراجع الأجنبية:

- Blunt, W: Secret History of the English Occupation of Egypt, London 1907.

- Safran, N: Egypt in Search of political Community, Oxford university Press, 1961.

خامساً ـ الدوريات:

ـ الأهرام: مايو ١٩٢٨.

ـ الجريدة: أبريل ١٩٠٨.

ـ الحديث: يناير ١٩٣٩.

ـ الدستور: سبتمبر ١٩٤٩.

ـ الرائد المصرى: ديسمبر ١٨٩٦.

ـ الرسالة: فبراير ١٩٣٧.

ـ السياسة الأسبوعية: مايو ١٩٢٨.

ـ الشباب: فبراير ١٩٣٦.

ـ المقتطف: يناير ١٩١٤.

ـ المقطم: فبراير ١٩٠٩.

ـ المؤيد: ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨.

ـ الهلال: سبتمبر ١٩٨٢.